قصة

الرأس المخلوع

اعترافات

عباس عبد جاسم

عندما دخلتُ القاعة، كان رأسي ثقيلاً، ربّما بسبب ارتفاع ضغط الدم. أخذتُ مكاني بين الرّجال الآخرين. كنتُ أُفكّرُ بشيءٍ مّا، وهم يثرثرون حول مائدة مستطيلة. وفجأة دخل رجلٌ مهيبٌ بخطىٰ قويّة واثقة، فكفَّ الرّجال عن ثرثراتهم وخُيِّل إليَّ أنَّ ثمّة أشياء تنسحق تحت أقدام الرّجل المهيب، وبدت لي الوجوه ملفوفة بصمت مبطّن بالخوف، وصار الرّجال أشبه بتماثيل رخاميّة واجمة؛ كأنَّ الزّمن والدم تجمَّدا في عروقهم، وشعرتُ بكابوس ثقيل يطبق على أنفاسي ويلتفّ حول عنقي.

قبل أن يأذن الرّجل المهيب لنا بالجلوس، تناهت إليَّ أصداء صاخبة لأصوات بشريّة غاضبة، تنطلق من أعماق بعيدة، ثمّ تدقّ في رأسي بقوّة. قلت محدِّثاً نفسي: «هذا الصداع ربَّما كان من أعراض الهوس والهذيان».

جلستُ على كرسيٍّ دوّار ذاتيّ الحركة. تذكّرت على الفور أسماء سماسرة في مزاد غير علني يعلنون عن «كرسي دوّار» للبيع في «سوق عصري». ولا أدري لماذا انتابني في هذه اللّحظة الشّعور بالغثيان، ربّما بسبب حركة الكرسي الدوّار، لأنَّه مكان مناسب لشخص غير مناسب.

قال الرجل المهيب، وهو ينظر إلينا بعينيْ صقر مليئتين بالزهو والكبرياء:

ـ هناك تجربة فريدة لم تمارَس من قَبْلُ في العالم الرّابع؛ وعلينا نحن، خاصّةً الخاصّة من النّاس، أن نمارسها قبل تعميمها على عامّة العامّة.

تطلَّع الرّجال بدهشة. داهمني قلق مفاجئ. فكّرت: «لعلَّها تجربة صعبة وخطيرة».

تابع الرّجل المهيب بلهجة صارمة:

ـ والآن.. اخلعوا رؤوسكم!

عندما خلع الرّجال رؤوسهم بخنوع وإذعان، تردَّدتُ في أن أخلع رأسي. تساءلتُ بشكٍّ عميق: ماذا يحدث لو خلعتُ رأسي؟!

أردف الرجل المهيب:

ـ هذه التجربة سوف تقودنا إلى نتائج باهرة، لأنَّها تتيح لنا قدرات إضافيّة على التحكُّم بصمّامات الأمن والأمان، وتفريغ الضغوط الناجمة عن ارتفاع ضغط الدم في الرّؤوس، بسبب صخب العالم، وتكشف لنا بالتالي عمّا يدور في الرّؤوس من أفكار سرّيّة لا عِلْمَ لنا بها.

ازداد تردُّدي، وتمنَّيتُ لو أنَّني لم أحضر هذه الجلسة السّرّيّة المغلقة، وإلاَّ فإنَّ رأسي سوف يتكلَّم بلا قيد ولا شرط، وسيفضح أسماء فاعلة ومستترة. ولأنّي لم أخلع رأسي، فقد دارت حولي الهواجس والظنون. وبغية تبديد أيّ شكّ في إخلاصي خلعتُ رأسي بحركة لاإراديّة، ثمّ وضعته أمامي. عيناي تنظران إليَّ بذهول، وقد غامت الرؤية فيهما، وشفتاي تتمتمان بأشياء لا أفهمها، تأكيداً على أنَّ رأسي يرفض الانفصال عن جسدي.

تابع الرّجل المهيب بصوت قوي واثق:

ـ والآن.. تبادلوا الرؤوس فيما بينكم!

وجدتُ نفسي في حَرَجٍ شديد: هل أقايض رأسي برأس رجل آخَر، وكيف آمن على رأسي؟

ثمّة أسرار خطيرة في رأسي، وسوف يُفصح عنها غيري حتماً؛ فالرّأس سيعترف بما هو مخبوء تحت لسانه، وسيتكلَّم بذاكرة لاإراديّة.

علَّق الرّجل المهيب:

ـ والآن.. أفصحوا عمّا يدور في رؤوسكم بلا رقابة «ولا رقابة سوى الضمير».

هذا الرّأس ليس برأسي. كان رأسي ثقيلاً، وهذا الرّأس فارغ تماماً، إذ لا شيء يشدّني إليه. غير أنَّني هجستُ فيه امرأة تتعرّى في ملهاة ليليّة، ورأيت بصيرته لا تبلغ أكثر من المسافة المحصورة بين العينين ومؤخّرة أرنبة الأنف.

عندما جاء دوري، شعرتُ بمرارة مسبقة. تطلّعت الوجوهُ إليَّ بصمت، وانشدّت العيونُ إليَّ بدهشة. توهَّم الرّجالُ، كلّ الرّجال، بأنَّ الرّأس المستعار على جسدي سيفصح عن أفكار شديدة الأهمّيّة أو يبوح بأفكار شديدة الخطورة. ولكنّه نطق قائلاً:

ـ في رأسي.. نساء مثيرات.. أسرّة مشوّشة.. سيّارات فارهات.. كرنفالات صاخبة.. أجواء خافتة.. أحلام برجوازيّة.. تطلُّعات طبقيّة.. وأشياء أخرى مخجلة مخدّشة للحياء العام.

٣ قصص قصيرة

محمود عبد الوهاب

يحدث هذا كلَّ صباح

أراقبهما، عادّةً، كلَّ صباح من الرّصيف المقابل، حين أكونُ أنا بانتظار السّيارة التي تنقلني واثنين من زملائي إلى الدّائرة، ويكونان هما بانتظار باص الشّركة. تأتي هي قبله دائماً، تتوهّج أمامي بثوبها الأصفر ذي الأكمام المخروطيّة (لم ترتدِ هذا الثّوب اليوم). تتريّث عند باب الزّقاق مستطلعة بحذَرِ طائرٍ صغير، ثمّ تنقل خطوها، بحذر أيضاً، على الرّصيف... حتّى إذا ما وصلت إلى منتصفه وبدأت تزن تأثيرها في المارّة استأنفتْ سيرَها بثبات لتجتاز حديقةً عامّة مهجورة ومخبزاً وثلاثة دكاكين أو أربعة ومجموعةً من الشّقق المتلاصقة كعربات القطار، فتتباطأ في سيرها، وتستقر بعد بضع خطوات على حافّة الرّصيف المقابل، عند شجيرة مسيّجة بالقصب.

فجأة يظهر هو مسرعاً في سيره، كَمَنْ يريد أنْ يصل إلى مكان معيّن في وقت محدّد. من أين جاء؟. وكيف؟. هكذا أتساءَل، من دون جدوى، كلَّ صباح، كأنّ يداً حاذقة حشرته في غفلة عنّي بين هؤلاء المارّة ثمّ تركتْ له الخيار ليواصل سيره إليها على الرّصيف المقابل.

وقبل أن يأتي دور الرّجل الذي يحمل رأسي، تملّكني شعورٌ غريب. ربّما سيبوح رأسي بكلِّ ما كنتُ أفكّر به، وعند ذلك ستكون النتيجة قاسية حقّاً، لأنّي سأكون لقمة سائغة بين الألسن المهذارة والأنياب الحادّة.

حدّق الرّجل بعينيّ البارقتين، ونطق بلساني الفصيح:

ـ أنا الذي رأى وسمع ولم يتكلّم.

تململ الرّجلُ المهيب. ارتبك الرّجال. أدركتُ أنّ رأسي لايزال ثقيلاً مثل كرة فولاذيّة، فهو ينتصب بثقة وثبات وقوّة من على جسد ذلك الرجل الخاوي الذي يجلس في مواجهتي تماماً.

تابع رأسي مِنْ على جسد ذلك الرجل الخاوي:

ـ أنتم أيُّها الرّجال لستم برجال، يجب أن تتحسّسوا جباهكم، هناك نتوءان بارزان في كلّ جبهة من جباهكم، أليس كذلك؟!

وبحركاتٍ لاإراديّة تحسّس الرّجال جباههم، فوجئ كلٌّ منهم بأنّ له قرنين صغيرين. احتجّ أحدهم، أعقبه آخر، ثمّ تعالت أصوات الرّجال الآخرين بالاحتجاج صاخبة لاهجة في القاعة:

ـ انتهازي.. وصولي.. طفولي.. يميني.

دقّ الرّجل المهيب بقبضة متماسكة على مقدّمة الطّاولة المستطيلة دقّات قويّة متعاقبة. فالتزم الرّجال الصّمت، وخيّل إليّ أنّ أفواههم قد أُلجمت، وأنّ ألسنتهم قد عقدت.

علّق الرّجل المهيب:

ـ حسناً.. استمرّ أيّها الرّأس في الاعتراف.

تكلّم رأسي بنبرة واثقة:

ـ أنتم أيُّها الرّجال لستم برجال خُلّص.. هناك ندبة سوداء داخل كلّ منكم من الجهة اليسرى.. فليبصر كلّ واحد منكم ندبته السّوداء.

عندما أبصر الرّجال كلّ منهم الندبة السّوداء، انفجرت أصواتهم من جديد، متدحرجة على الطّاولة المستطيلة، ترتطم بعضها ببعض، وسرعان ما ترتدّ خائبة منكسرة. كانت عينا الرّجل المهيب تتألّقان بزهوٍ وكبرياء أشبه بعينيْ صقر مليئتين بالإباء والشّموخ. وكانت أصواتهم تتناهى إليّ أشبه بنعيق الغربان، ونقيق الضفادع، وعواء الذئاب، ونباح الكلاب، وخوار البقر، وأصيص الفئران.

صاح الرّجل المهيب بصوتٍ قويّ سرعان ما طغى على تلك الأصوات الهجينة:

ـ صمتاً يا أشباه الرّجال العراة.

عندما ران الصّمت من جديد، أدركتُ أنّ رأسي قويّ غير قابل للاختراق، وخيّل إليّ أنّه أشبه بكرة فولاذيّة تهدّد شباك الخصوم.

تابع رأسي:

ـ في رأسي أحياء أموات، وأمواتٌ أحياء، رجال رجال، ورجالٌ أشباه رجال، ومثقّفون مثقّفون، ومثقّفون أُمّيُّون، وفقراء فقراء، وفقراء أغنياء، ومجرمون مجرمون، ومجرمون أبرياء...

ثمّ صمت رأسي لحظة، ومالبث أن نطق:

ـ أيّها الرّجل المهيب: في رأسي سيف معلّق بشعرة، قد تنقطع الشّعرة، ويهوي السّيف على الرّقبة.

عقّب الرّجل المهيب:

ـ والآن.. اخلعوا رؤوسكم.. هذا هو الرّأس.. وتلك هي الرّقبة.

قبل أن يخلع الرّجال رؤوسهم، خلعتُ عنّي الرّأس المستعار، لأنّي لم أفقه منه شيئاً غير الرّغبة لحظة الانتصاب.

وعندما وضعتُ رأسي على جسدي من جديد، تحسّستُ عنقي. تذكّرتُ أنّه رأسي، وصحوتُ من كابوس ثقيل.

بغداد